الإسلام وقدرته على التنافس الحضاري

السيد مُحَمَّد حسين فضل الله

نشر في كتاب

الدور الحضاري الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد

(سلسلة مشروعات ثقافية)
مركز البحوث والدراسات
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، الطبعة الأولى
1421 هـ /2000م

أعيد نشره إلكترونيا في رمضان
1439 / مايو 2018

الإسلام وقدرته على التنافس الحضاري

السيد مُحَمَّد حسين فضل الله (*)

نحن أمام التطور العلمي للشعوب لا نجد أي عقدة من الانفتاح عليها والتعامل معها، بل نضع أمامها جملة من الأسئلة الحضارية عن رسالة العلم وغاياته ومدى إنسانيته وخدمته للبشرية.

الحديث عن الإسلام وقدرته على التنافس الحضاري، يختزن في داخله معنى الامتداد في الزمن.. وإن قصة أي فكر، سواءً كان فكرًا دينيًا رساليًا أو علمانيًا أو أي شيء متعارف في وصف الفكر، لا يمكن مقاربته وفق منطق الغالب والمغلوب، أو من موقع عقدة الضد مع (الآخر).. فالمسألة ليست عملية صراع مادي في أصوله ومعطياته، بل هي مسألة فكر، وفي الفكر لا يصح الحديث عن غالب ومغلوب، ولا يمكن تصنيف الصراع الفكري في إطار مفاهيم الهيمنة والغلبة. إن المسألة فيما له علاقة بالفكر هي مسألة منافسة وأدوات حوار وعمل تمكننا من دخول العقل، والعقول تعرف لغتها جيدًا، من خلال انفتاحها على فكرٍ يخاطب فكرًا، وعلى كلمة تحمل فكرًا وتنقله بشفافية وبمحبة.

وعندما ينطلق نقاش الأفكار فلا يعود من مكان للعصبية، لأن العصبية تفتك بالفكر وتحول الاختلاف الفكري إلى مناخ لتبادل الأحقاد والأحقاد المضادة.

(*) مفكر.. وباحث.. (لبنان).

والفكر ليس شيئًا خُلق مع الإنسان منذ ولادته، بل هو مادة ننتجها ونتوارثها. ونحن نعرف أننا قد نتخلى عن ما أنتجناه إذا اكتشفنا أنه لا يمثل صلاح الحياة، وقد نتخلى عن بعض ما ورثناه لنستبدله بما هو أفضل وأنفع، لذلك فإن الإسلام منذ البداية لم ينتشر بالإكراه أو بالهيمنة والإلغاء، وإنما قال للذين يختلفون معه: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (البقرة:111).. فلغة الفكر هي لغة دليل يقابل دليلاً، وليست لغة انفعال وعاطفة. ومشكلتنا في (الشرق) أننا أدخلنا الفكر في مشاعرنا ولم ندخله في عقولنا، وبذلك أصبحنا نفكر بطريقة غرائزية وغير عقلانية، فتحول الاختلاف فيما بيننا إلى خلاف ونزاع وربما إلى صراع.

قدرة الإسلام على التنافس الحضاري

ثم إن مسألة قدرة الإسلام على التنافس الحضاري، قد تبدو من خلال هذا العنوان غريبة بعض الشيء، لأن القدرة على التكلم عن أي فكر يدخل ساحة التنافس معناه: أن هذا الفكر يريد الدخول من جديد إلى ساحة المنافسة، ونحن نعرف -من خلال تاريخ الفكر والدين وتاريخ حركة الصراع- أن الإسلام عندما بدأ، بدأ في ساحة مثقلة بما قد لا يسمى فكرًا في الساحة الإسلامية، وإنما يسمى انتماءً في ساحة الدعوة الإسلامية، وربما كان هناك فكر في المنطقة التقى به الإسلام بعد ذلك، وهو الفكر الديني المختلف فيما هي اليهودية والنصرانية.

وتحرك الإسلام في التاريخ، وواجه الكثير من ألوان الفكر بمختلف تنوعاته، لا سيما عندما دخلت الترجمة إلى الساحة الإسلامية، ولم يتعقَّد الإسلام من الفكر (الآخر)، بل احتواه واستوعبه، وعمل على الحوار معه، ووصل إلى نتائج إيجابية على مستوى الدعوة.

فقد رأينا أن السلطة الإسلامية تحركت في مدى تلك القرون الأربعة عشر وبقي إلى جانبها اليهود والنصارى والمجوس، وربما بقي بطريقة وبأخرى بعضٌ من التيارات

اللادينية. فالإسلام لم يلغ (الآخر) في حركته في الواقع الثقافي والسياسي، بينما نجد أن التجربة في الأندلس عندما انتصر غير المسلمين على المسلمين، ألغوا الإسلام كله في كل الأندلس، لهذا فإننا نتصور أن هذه التجربة الحضارية للإسلام استطاعت أن تصنع الحضارة للعالم كله كأفضل ما تكون الحضارة، في مدى مائة سنة. ونحن نقرأ في مذكرات (نهرو)، وهو رجل يحمل الكثير من الفكر، أنه يعبر عن الحضارة الإسلامية بأنها أم الحضارات الحديثة، لأنها هي التي أعطت الغرب التجربة كوسيلة للمعرفة إلى جانب الوسيلة التأملية العقلية السائدة، وذلك من خلال تجارب الفلاسفة والعلماء أمثال ابن رشد وغيره.

الإسلام مجتمع التنوع:

إذًا نستطيع القول بالإجمال: إن الإسلام نجح في تجاوز حركة التنافس الحضاري على المستوى الثقافي والسياسي والاجتماعي، واستطاع مجتمعه الحضاري أن يكون مجتمعًا متنوعًا يضم إلى جانب المسلمين اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم.. بل إننا نستطيع التأكيد بأن أول مجتمع إسلامي، كان يمثل البذرة الأولى للدولة الإسلامية، كان مجتمعًا متنوعًا يتحرك على أساس أسلوب المعاهدة بين أفراد المجتمع الذين يختلفون في خلفياتهم الدينية أو مرجعياتهم الفكرية. فقد عقد النبي ﷺ عندما جاء إلى المدينة معاهدة إلفة بين جميع أفراد المدينة من المهاجرين والأنصار من الأوس والخزرج، وضم اليهود آنذاك إلى هذه المعاهدة، فجعل حقوقهم كحقوق أفراد المجتمع الآخر، وكانت تلك أول وثيقة حقوقية في المجتمع المتنوع، الذي يتكامل أفراده في القضايا المشتركة حتى مع اختلافهم في الدين والفكر.

وقد نجد الكثير من اليهود والنصارى الذين يتعقدون من فكرة نظام الذمة، لأنهم يتصورون أن النظام الذي يحكم علاقة المسلمين بأتباع الأديان الأخرى في دولة

الإسلام هو نظام الذمة، التي قد يتصورونها نوعًا من أنواع التصنيف الذي يحول غير المسلم إلى إنسان من الدرجة الثانية في المواطنة والحقوق.. ونحن لنا رأي آخر لا نريد الدخول فيه لأن المجال ليس مجاله الآن.. وقانون الذمة يمثل أسلوبًا حضاريًا لم يعرفه العالم من قبل، وهو لا يمثل -كما يُظن- اضطهادًا لإنسانية الإنسان، أو امتهانًا له، لكن سواء قبلنا الذمة أو لم نقبلها، فإن أول من سنَّ (العقد الاجتماعي) كأسلوب إسلامي في بناء العلاقة مع (الآخر) ومن خلال أتباع الأديان الأخرى كان الإسلام، ذلك من خلال صيغة المعاهدة التي قد يصطلح على تسميتها حديثًا بـ (العقد الاجتماعي).

ولذلك فإننا نتصور أن الإسلام نجح نجاحًا كبيرًا في مسألة حركة التنافس الحضاري، واستطاع أن يصنع حضارته على أفضل صورة تحفظ للإنسان إنسانيته ولصاحب المعتقد معتقده. ولكننا نحاول -ولو بشكل مختصر- الإشارة إلى العناصر المكونة للقدرة الإسلامية على دخول حركة التنافس الحضاري، لا سيما أن هناك من يقول بوجود فرق بين المراحل التي استطاع الإسلام أن يقطعها في دائرة التنافس.

مكامن القوة الحضارية في الإسلام

وقد يتصور بعض الناس أن هذا العصر هو عصر نهاية الإيديولوجيا، وأن المسألة لم تعد مسألة عقائد تحكم الإنسان، ولكنها أصبحت مسألة قوىً تتحكم به بأساليبها الخاصة، فليس هناك شيء اسمه صراع العقائد ولكن هناك صراعًا من نوع آخر، إنه صراع المصالح، فقد يقول قائل: إن الإسلام يعيش من خلال الواقع في موقع الضعف، والمجتمعات الأخرى تعيش في موقع القوة، فكيف يمكن للإسلام التفكير بدخول دائرة التنافس الحضاري في هذا العصر ؟ وهنا قد نحتاج إلى دراسة مكامن القوة الحضارية في شخصية الإسلام كقوة تتحرك في خط الحضارة.

- إنسانية الإسلام:

وعندما نبحث عن هذه العناصر، فإننا نلتقي في البداية بإنسانية الإسلام.. فالإسلام إنساني في نظرته إلى الإنسان كله، وهو لم ينطلق من أية حالة عرقية أو قومية، فقد ولد في المنطقة العربية ولكنه لم يحمل القومية العربية –بالمفهوم العرقي العنصري– كعنوان لحركته ليكون غير العرب ملحقين سياسيًا أو ثقافيًا بالعرب. فقد كان القرآن والنبي عليه الصلاة والسلام عربيين، ولكن الإسلام جاء إلى الإنسان كله، لأنه رسالة إنسانية جامعة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾ (الحجرات:13). فقد أطلق الإسلام الإنسانية في بُعدها الواسع، ولكنه لم يلغ خصوصيات الإنسان الوطنية والقومية والعرقية، فلكل شخصية عرقية خصائصها وعناصرها التي تميزها عن الأخرى، لكن هذه الخصوصيات لم تكن يومًا حائلاً دون اعتناق الإسلام والاهتداء بهديه.

وهكذا عندما نتحدث عن كل المميزات الإنسانية التي تميز شخصًا عن آخر، فالإسلام لم يلغ الخصوصيات الإنسانية وإنما نظمها وأنسنها: ﴿ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾ فعندما تتحرك خصوصية كل إنسان في موقع معين، فعلى كل خصوصية أن تخاطب الأخرى بما عندها من خبرة وتجربة في ما تحتاجه الخصوصية الأخرى، ليتحقق الانفتاح المطلوب الذي يفتح الخصوصيات بعضها على بعضها الآخر، ويجعلها تتناغم فيما بينها.. والتعارف ينطلق من خلال التناغم، والتناغم ينطلق من خلال الحالة التي يعيشها كل إنسان في تفاعله مع الإنسان (الآخر) من خلال فكره وخبرته وعلمه أو ما إلى ذلك. فخصوصياتنا الجغرافية والقومية واللغوية، هي خصوصيات من أجل إغناء التجربة الإنسانية، التي تتعارف فيها خصوصية مع خصوصية أخرى وتتفاعل من خلالها بعضها مع بعض، لكون النتائج للإنسان الذي يجمع الخصوصيتين ويحقق خلاصة هذا التفاعل بين الخبرات وبين الثقافات.

ولهذا كان الإسلام إنسانيًا: «**لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ...إلا بِالتَّقْوَى**»(1).. والتقوى لا تمثل حالة منغلقة في الإنسان، فهي تحركه في الحياة من خلال مسؤوليته أمام الله.. ومن خلال هذه المسؤولية، تكون المسؤولية عن الإنسان كله والحياة كلها. لذلك فالفكر عندما ينطلق فإنه يتوجه إلى كل الإنسان، ويخاطبه كجوهر وذاتٍ فاعلة ومهتدية، ولهذا نجد في القرآن نداءين في ما ينادي به الله، هناك نداء: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾، وهناك نداء: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾.. وهذا النداء ليس نداءً بالمعنى الطائفي الذي يُتاجر به الناس، ولكن: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ الذين التزموا الإيمان فكرًا وعاطفة وحركة، بحيث ينطلق الإيمان ليتحرك في خط المسؤولية للإنسان.. فهذه القاعدة الأولى لمنطق القوة في الحضارة الإسلامية.

– الإسلام دين توحيد في العقيدة والمجتمع:

وهكذا نجد أن الإسلام هو دين توحيد في العقيدة، ودين توحيد في المجتمع. فأما في الأولى، فهو الإيمان بالله الواحد الذي لا شريك له ولا مثيل، فنحن نستحضر الله في الوجدان الإنساني وليس بالعين المجردة، لأن العين إذا حدقت في ما نتمثله استغرقت فيه وحولته إلى صنم، أما عندما نستحضر الله الواحد الذي خلقنا وتعهدنا بالرعاية والرحمة والمحبة، فإننا ننفتح على عالم روحي يغني كل وجودنا، فنشعر بالأمن والطمأنينة معه وبرعايته وحبه. فالله الواحد هو رب العالمين وليس رب فئة دون أخرى، لا يستطيع أحد أن (يعلّب) الله داخل كنيسة أو مسجد. فالإنسان لا يحتاج إلى شخص معين ليقربه إلى الله، فالله دعانا لأن ندعوه ونحادثه دون وسيط،

(1) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان وأبو نعيم في الحلية: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلا لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلا لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إلا بِالتَّقْوَى...**» وأخرجه أحمد والترمذي وغيرهما وصححه الألباني (الناشر).

حيث يخاطب الإنسان بكل حنان ورأفة: ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (البقرة:186)، فقولوا لي ما تريدونه من دون الخضوع لأي وسيط، كائنًا من كان هذا الوسيط، شيخًا أو قسًا أو كاهنًا أو غير هؤلاء... فالله هو رب العالمين، وعندما يتحدث عن رسوله ﷺ يقول الله عز وجل: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سبأ:28)، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:107)، فهو رسول للعالمين وليس رسول فئة دون أخرى.

وبذلك أكد الإسلام جانب الوحدانية لله في معنى الوجود والقدرة، وبلغ الرسول أن ينشر مفهوم التوحيد على كافة المستويات، التوحيد في العبادة والوحدة في المجتمع، فلا فرق بين أحد وآخر إلا بما يقدمه في سبيل الله ومن أجل الإنسان.. ونلتقي بذلك بحديث الرسول ﷺ وهو يشير إلى ما يعانيه المجتمع من تميز في العلاقات ومفاضلة بين الناس: « **إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ, أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ, وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ, وَايْمُ اللَّهِ, لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ** –ولن تسرق فاطمة بنت محمد– **لَقَطَعْتُ يَدَهَا**» [(1)].

وهكذا نلاحظ أن الإسلام لم يُشرع لطبقة دون طبقة، فقد شرع للإنسان كله، فليس هناك في الإسلام تشريع طبقي، للأغنياء دون الفقراء، أو لأصحاب الجاه دون الذين لا يملكونه، فأعلى شخص في المجتمع يخضع للتشريع الإسلامي في حقوقه وواجباته بالدرجة نفسها التي يخضع لها أصغر شخص، فالعدالة تقتضي خضوع الجميع لله ولشرعه بالمستوى نفسه.

(1) أخرج الترمذي في سننه: «**إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه. وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. وأيم الله! لو أن فاطمة بنت محمد سرقت، لقطعت يدها**». وأصله في الصحيحين؛ (الناشر).

– عقلانية الإسلام:

والنقطة الثالثة في هذا الإطار، هي عقلانية الإسلام، فالإسلام أعطى للعقل قيمة ومكانة بحيث كرّم به الإنسان، وهداه من خلاله إلى سبل الحياة في ما يستطيع إخضاعه من وسائل الحياة، لأن هناك أشياءً يملك العقل الوسيلة للوصول إليها، وأشياء أخرى لا يملك الوسيلة إليها.

فالعقل يدرك وجود الله من خلال طبيعة المعادلة التي تعتبر –حسب الاصطلاح الفلسفي– أنَّ ممكن الوجود، الذي لا يكون وجوده وعدمه حتميًا، لا بد أن يستمد وجوده من الخارج، لأنه لا يحمل في داخله حتمية وجوده، إذاً لا بد من وجود خالق للوجود. فهذا ما يستطيع العقل أن يدركه ويجب أن يسعى لإدراكه، ولكن ما هي خصائص هذا الخالق وما هي عناصر كينونته ? فهذا غيب لا يستطيع العقل إدراكه، لأنه لا يملك الأدوات المعرفية للوصول إليه. لذلك نقول: إن العقل هو الذي نستطيع الاستدلال به على وجود الله وعلى نبوة النبي عليه الصلاة والسلام وعلى إمكانية اليوم الآخر، فالعقل في الإسلام هو حجة الله، وهناك تعبير يقول: «العقل رسول من داخل، والرسول عقل من خارج»، لذلك فالعقل أساسي في الإسلام.

ويرى الكثير من علماء الكلام: أنه إذا كان ظاهر القرآن يعطي شيئًا، والعقل القطعي يرى أن هذا الشيء مستحيل، فلا بد من تأويل ظاهر القرآن لمصلحة العقل، لذلك فإن الإسلام يؤمن بالعقل ويخاطبه ويُعلي من شأنه، وهناك حديث يقول: «**لما خلق الله العقل قال له: أدبر، فأدبر، ثم قال له: أقبل، فأقبل، فقال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقًا أحسن منك، إياك آمر، وإياك أنهى، وإياك أعاقب**» (1) لأن التفكر يغني المعرفة بالله، ويجلي الحجب عن الأبصار، لذلك ليس الإيمان فوق العقل، بل هو

(1) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الدار الإسلامية، طهران، 96/2/1، رواية 4 .

نتيجة طبيعية لإعمال العقل، لأن العقل هو الذي يركز للإيمان عقيدته حتى ولو لم يتمكن من مرافقة الإيمان إلى كل آفاقه، حيث لا يملك العقل أي وسيلة للمعرفة فيه.

– الإسلام دين العلم والعقل:

وهكذا نجد أننا عندما نتحدث عن العقل فإننا نتحدث عن العلم، فالعلم في الإسلام فريضة: «**طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**»[1]، ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ (الزمر:9).. والعلم ليس له حد يقف عنده: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ (طه:114).. لذلك فالعلم هو أساس التفاضل الإنساني فيما هي القيمة الإنسانية في معنى الإنسان.. والعلم هو الوسيلة التي تعيننا على كشف أسرار الكون والحياة، لذلك فالأمة الجاهلة لا يمكن أن تعي حقيقة الإيمان العميق.

ولذلك فنحن أمام كل التطور العلمي للشعوب التي تقدمت علينا بفعل اشتغالها بالعلم وتخلفنا عنها بفعل انشغالنا بالتخلف والجهل، لا نجد أي عقدة من الانفتاح عليها والتفاعل معها، بل قد نضع أمامها جملة من الأسئلة الحضارية عن رسالة العلم وغاياته ومدى إنسانيته وخدمته للبشرية والحياة.

ولذلك فنحن لم نضع أي تحفظ على أي إنتاج علمي، وتحفظنا ينحصر في دائرة استخدام العلوم وإنسانية وظيفتها.. نحن عندما طُرحت مسألة الاستنساخ وثار الكثيرون على فقهاء المسلمين ليحرموها، قلنا: إن الاستنساخ بحد ذاته لا يمثل مشكلة من حيث المبدأ، ولا يمثل نفيًا للعقيدة الدينية التي تقول: إن الخالق هو الله، لأن هذه التجربة لا تحوّل الإنسان إلى خالق، بل إن الإنسان من خلال الاستنساخ يستهدي القانون الذي وضعه الخالق لإنتاج الحياة في الكائنات الحية، في الإنسان والحيوان والنبات.

فالعلماء يؤكدون أنَّ الكائن الحي يبدأ من خلية تشتمل على ستة وأربعين من

(1) البحار، 31/9/2، رواية 20.

(الكروموزومات)، وهذه بدورها موزعة بين النطفة والبويضة، وجاءت تجربة الاستنساخ لتجمع بين عناصر الخلية في ظروف اصطناعية، فقد أخذت خلية حية ثم فرّغت البويضة وأودعت فيها، فكان هناك ستة وأربعون تمامًا كما هو طفل الأنبوب، وهذا لا يعتبر خلقًا يتجاوز القوانين المودعة في مخلوقات الله، لأن الأمر كي يكون كذلك لا بُدَّ من خلق قانون جديد خارج دائرة القوانين الإلهية لإنتاج الحياة، وهذا ما لم يستطيعه الإنسان في كل اكتشافاته واختراعاته. فالإنسان إنما استهدى القوانين التي اكتشفها في الكائنات، ومع ذلك عندما طُرحت مسألة استنساخ البشر، قلنا بوجوب النظر إلى المسألة من الزاوية الوظيفية الأخلاقية، وطرحنا أسئلة عن المفاسد الأخلاقية والاجتماعية والحقوقية التي تلزم من ذلك، وكم هي المصالح، فإذا كانت المفاسد أكثر من المصالح عندها تقع الحرمة الشرعية، وإذا كان العكس، فلا إشكال في حليّة العملية، فكل ما كانت مفسدته أكثر من نفعه فهو حرام، وهذه هي المعادلة التي نبني على أساسها رأينا في الموضوع، علمًا أننا لم نعش هذه التجربة من قبل.

- الإسلام دين العدالة:

أما النقطة الأخرى في الجانب الحضاري في الإسلام فهي العدالة، ففي الإسلام العدالة مطلقة، ولا دين لها ولا مذهب ولا قومية ولا عرق، فالعدالة لكل الناس، للمؤمنين وللكافرين على حدٍ سواء:﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾(النساء:135)، فالله يأمر بالعدل والإحسان، وقال:﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (المائدة:8)، وقد ورد في بعض الأحاديث المأثورة في السنة النبوية الشريفة: «**أن الله أوحى إلى نبي في بني إسرائيل في مملكة جبار من الجبارين: أن ائت هذا الجبار فقل له:**

إني لم أستعملك على سفك الدماء واتخاذ الأموال، وإنما استعملتك لتكف عني أصوات المظلومين، فإني لم أدع ظلامتهم وإن كانوا كفارًا» [1]، فتعاليم الله تؤكد أن الكافر أو المشرك بالله إذا كان له عليك حق فعليك أن لا تظلمه حقه، فالعدالة هي لكل الناس.

– التوازن في الإسلام:

وهكذا نجد أن من عناصر الإسلام التوازن، فهو يوازن في تشريعاته بين السلطة والجماعة، والفرد والمجتمع، فللفرد حقوقه التي تمتد إلى أن تقف عند حدود المجتمع، وللسلطة حقوقها التي لا يمكن لها التعدي على حقوق المجتمع. لذلك فالسلطة في الإسلام لا تملك حقًا إلهيًا مطلقًا.

ونحن نقرأ في نهج البلاغة عن الإمام علي ﵁ وهو في موقع الخلافة أنه قال للناس: «فلا تكلموني بما تكلم به الجبابرة، ولا تتحفظوا مني بما يُتحفظ به عند أهل البادرة، ولا تخالطوني بالمصانعة، ولا تظنوا بي استثقالاً في حق قيل لي ولا التماس إعظام لنفسي، فإنه من استثقل الحق أن يقال له أو العدل أن يعرض عليه، كان العمل بهما أثقل عليه، فلا تكفوا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل، فإني لست في نفسي بفوق أن أخطئ ولا آمن ذلك فعلي، إلا أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به مني»[2].. الحاكم هنا يطلب من الناس دراسة سلوكه وحكمه وسيرته، فهذه هي مسألة السلطة في الإسلام، إن الإسلام لا يعطي صاحب السلطة سلطة مطلقة على طريقة ما كان يعرف في أوروبا بالحكم الإلهي، الذي يُعبّر فيه مزاج الحاكم عن إرادة الله.

وهكذا نجد وجود التوازن بين المادة والروح، فالإسلام ليس ماديًا بالمطلق وليس

---

(1) البحار، 464/31/2، رواية: 36.

(2) نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه، دار التعارف للمطبوعات، ط1، 1410هـ/1990م، خطبة 216، ص254.

روحيًا بالمطلق، ولكنها روحية تجد روحها في المادة، ومادية تجد سموها في الروح، ولذلك فنحن ننتقد المصطلح الموجود في لبنان عندما يتحدثون عن مقامات وقيم روحية وإرشاد روحي، ونقول: إن هؤلاء مثلنا يحملون فكر الروح ولكنهم لم يتحولوا إلى روح، فلكل منهم مادة قد تعيش كل سلبيات المادة وربما تنفتح على إيجابيات الروح، لذلك ليست عندنا مقامات روحية، بل مواقع إنسانية تتخصص بالدين الذي هو مزيج من المادة والروح، ونحن من القائلين: إن الدين خُلِق للإنسان ولم يخلق الإنسان للدين: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ (الأنفال:24)، فالدين جاء لحماية الإنسان من نفسه ومن غيره ولكي ينظم له حياته.

– مرونة الإسلام وقدرته على الانفتاح:

وهكذا نلاحظ اشتمال الإسلام على المرونة والقدرة على التكيف في مسألة التشريعات الإسلامية، ونحن نقول: إن الأخلاق الإسلامية ليست مثالية بالمطلق إذا كان المقصود بالمثالية ما يتعالى على الواقع ولا نستفيد منه.. فالإسلام واقعي في سننه الأخلاقية، فمثلاً عندما نواجه بعض الحالات في الواقع السياسي الذي نعيش فيه، حالات اضطهاد للناس من قبل أجهزة مخابراتية أو أجهزة أعداء، فلو قُدم الإنسان إلى المحقق وطلب منه أن يفضح أسرار شعبه أو دولته وقيل له أحلف بالله –ونحن نعرف أن الكذب حرام– وقد يحرم على الإنسان قول الصدق ويباح له الكذب في حالات خاصة، لأن الله حرم الكذب كخاصية إفساد للإنسان وأراد له الصدق، لأنه يرتفع بمستواه، إلا في مواطن معينة يتحول الصدق إلى أداة سلبية ضد مصلحة الإنسان، فيجوز الكذب في هذه الحالة التي يتقدم فيها الأهم على المهم.

ونحن نقول: إن الأخلاق الإسلامية متحركة، كالغيبة مثلاً، فهي محرمة، ولكن مثلاً إذا جاءك إنسان يستشيرك في مسألة وكنت تعرف أشياء سلبية فيمن يستشيرك

عنه، فهنا الحديث عن خفايا الشخص هو غيبة، ولكن لو أغلق باب النصيحة لاختل نظام العالم، ولذلك نقول: إن من مستثنيات الغيبة إعطاء النصيحة.

وهكذا، فإن الأخلاق والقيم الإسلامية ليست مثالية بل واقعية، فهي بقدر ما تلتصق بالمبادئ، إلا أنها تتوازن لما فيه صلاح الإنسان.

ثم هناك الانفتاح، فالإسلام هو دين منفتح على العلوم والمعارف، ولذلك رأينا كيف استقدم الإسلام العلوم الأخرى من مناطق غير إسلامية بواسطة الترجمة وترك للحوار المجال الواسع في هذا الاتجاه.

- الإسلام دين القوة:

وهكذا أراد الإسلام للناس أن يأخذوا بأسباب القوة، ولكن القوة التي تحمي الإنسان ولا تسقطه، ولهذا عندما ندرس آيات القتال في الإسلام: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ (البقرة:190)، ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ﴾ (النساء:75)، نجد أن القتال في الإسلام هو وقائي تارة ودفاعي أخرى، تمامًا كأي بلد يتحرك في خط مواجهة الأعداء.

وعلى ضوء هذا، هناك عناصر أخرى تعني أن الإسلام عندما يدخل ساحة التنافس الحضاري، فإن لديه القدرة على أن يأخذ دوره في الحياة إذا تهيأت له الظروف الملائمة، لأنه يختزن الكثير من الغنى في العناصر الحضارية التي يمكن للإنسان أن يعيش معها براحة وسعادة، وهذه هي مسألة الحضارة.

إن قيمة أية حركة حضارية هي بمقدار ما ترفع مستوى الإنسان وتعالج مشاكله، ونحن نتصور بفعل التجربة وبفعل المكونات الداخلية للإسلام، أنه قادر على الاستمرار في العصر الحاضر ودخول معترك التنافس مع التيارات الأخرى كما كان في

الماضي.

الإمكانات الموضوعية لقدرة الإسلام على التنافس الحضاري

وهنا نحاول ولو بشكل مختصر أن نتحدث عن الإمكانات والقدرات الموضوعية للعالم الإسلامي، فهناك عدة مفردات تؤهل العالم الإسلامي أن يمتد في الجانب الحضاري: الموقع الجغرافي الاستراتيجي في وسط العالمين القديم والحديث، وامتلاكه للإمكانات المادية الكبيرة التي يقوم عليها الاقتصاد العالمي في مناحي متعددة منه، وامتلاكه طاقة بشرية كبيرة، إذ يعد سكان العالم الإسلامي بمئات الملايين المهيئين للتعبئة والتوظيف في كافة المجالات الإنتاجية والحيوية، ثم امتلاكه للثروات العينية والطبيعية على اختلافها.

فالواقع الإسلامي الموضوعي، يمتلك المؤهلات والمكونات الطبيعية لإقامة كيان حضاري يملك الكثير من الغنى المادي والبشري الذي يستطيع من خلاله تحويل هذه الخطوط الفكرية والتشريعية والمفاهيمية إلى واقع حي نابض متحرك قادر على المنافسة والتحدي.

المعوقات الموضوعية أمام الأمة الواحدة

أما عن الموانع من توظيف الإمكانات الذاتية والموضوعية في مشروع الأمة الواحدة، فهناك الموانع الذاتية ومنها: عدم وجود رؤية جامعة للأمة الواحدة، فالمسلمون ممزقون مع العلم أن الإسلام يدعوهم إلى الوحدة وإلى الاعتصام بحبل الله جميعًا، و «**مَنْ لَمْ يَهْتَمَّ بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ**»[1]، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾(آل عمران:103)، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾(المؤمنون:52)، والرسول ﷺ يقول: «**من سمع رجلاً**

(1) البحار، 338/20/74، رواية 119.

ينادي يا للمسلمين، فلم يجبه فليس بمسلم»[1]، مما يعني أن الإسلام يعني في شخصية المسلم أن يعيش كل التفاعل الفكري والشعوري والعملي مع المسلم الآخر.

– مجتمع استهلاكي:

لقد تحول المسلمون من منتجين إلى مستهلكين، ومن مبدعين إلى مقلدين، وهذا ما نلاحظه في كل نواحي الحياة الاقتصادية أو الأمنية والعسكرية، فنحن نستهلك السلاح والغذاء وكل أدوات الحياة، ونتحرك تحت تأثير المصارف الدولية التي تفرض علينا نمط اقتصادنا كما تفرض علينا حركة هذا الاقتصاد بما قد يخلق لنا المشاكل الداخلية والخارجية.

– غلبة الإقليميات والمناطقيات:

إن غياب الوحدة وسيادة الإقليميات والمناطقيات والعشائريات، هو من أهم معوقات الوحدة عندنا، فقد أصبح لكل منا دائرة مغلقة، سواء كانت وطنية أو قومية أو عشائرية أو إقليمية.

ونحن نقول: إن الإسلام لا يمنع مسألة الدوائر ولكن هناك فرقًا بين دائرة مغلقة وأخرى منفتحة، وقد كنا نقول دائمًا –ونحن في لبنان– إن لبنان هو الوطن الأبدي والسرمدي، ولكننا رأينا ماذا أنتجت هذه الفكرة الخيالية اللاواقعية سياسيًا وأمنيًا، لأن العالم كله تحول إلى قرية واحدة.. ليكن لنا لبناننا ولكن لينفتح على المنطقة العربية، ولتنفتح المنطقة العربية على المنطقة الإسلامية، ولتنفتح المنطقة الإسلامية على العالم وهكذا.. فمشكلتنا هي الدوائر المغلقة، الذات، والعائلة، والبلد المغلق، والقومية المغلقة، إلى آخر ما أتقناه من حالات الإغلاق والانغلاق.

---

(1) [م.ن.]، 339/20/74، رواية 120 .

- العصبيات والمذهبيات:

لقد تحول الاختلاف من أطره العلمية المنتجة إلى أطر عصبية ومذهبية، وسادت لدينا قيم سلبية من قبيل التعصب والنزاع والقهر والغلبة والاستبداد، مقابل قيم العدالة والحرية والإنسانية والتنمية والعقل والإنتاج.. ونحن نعرف جيدًا أننا أمة تعتقد أن العبودية لله الواحد وتنبذ الأصنام بكل أشكالها، ومع ذلك نصنع في كل مرحلة صنمًا هنا وصنمًا هناك، في كل هذا العالم الثالث، لنتعبد له بطريقة سياسية أو ثقافية أو اجتماعية.

- التراث المختلط الفوضوي:

وهكذا نجد التراث المختلط الفوضوي، الذي يمنع الأمة من تأصيل تراثها، وكذلك يمنعها أن تتحرك من موقع الأصالة.. ومن الموانع والمعوقات الموضوعية: الغزو الاستعماري المستمر بأشكاله المتعددة، الثقافي والاجتماعي والإعلامي والأمني، وهنا نحن نتحرك على أساس أننا لا نملك أمرنا، ولعل الخطورة ليست في أننا لا نملك أمرنا من الخارج، بل في أننا لا نملكه من الداخل أيضًا، فقد أصبحنا مدمنين على الخضوع (للآخر)، فنحن ننطلق بوجوه مستعارة وعقول مستعارة، حتى أن (الآخرين) قالوا: إنه لدينا مشكلة مع اللبنانيين، وقد قالها لي أحد السفراء: مشكلتنا مع اللبنانيين أنهم يحدثوننا عما نريد ولا يحدثوننا عما يريدون[1]، فقد لا نملك قوة أمام القوة الكبرى، ولكن إذا استطاعوا محاصرتنا بأجسادنا فلن يستطيعوا محاصرة فكرنا، فعلينا أن نخلق في داخلنا بذرة الرفض لكل ظلم واستكبار، فالحرية ليست مرسومًا تعطيه دولة، ولكنها إرادة يعيشها الإنسان في نفسه وطريقة عيشه.

وهناك حديث للإمام جعفر الصادق (ع)، وهو يتحدث عن الحرية، فيقول:

---

(1) ولعل هذا يصدق على كثير من بلاد العالم الإسلامي. (الناشر).

(إن الحر حر على جميع أحواله، إن نابته نائبة صبر لها، وإن تداكت عليه المصائب لم تكسره، وإن أسر وقهر استبدل باليسر عسرًا) [1]. كن حرًا في داخل الزنزانة، وقد تكون عبدًا وأنت في الهواء الطلق.

قدرة الإسلام على الإسهام في الحضارة الحديثة:

هناك من يقول: إن الحضارة في الإسلام أمر نظري.. وهذا التوهم يفترض أن الإسلام يشتمل على مفاهيم لا يمكن لها أن تتحول، عبر وسائل عملية، لما يمكن أن نسميه: حركية الحضارة في الواقع الإنساني.

وربما يستشهد هؤلاء بالواقع الإسلامي الذي يحياه المسلمون الآن في ما يبدو من آثار التخلف على تجربتهم المعاشة، بينما هم يتحدثون عن المفاهيم الحضارية من دون أن تتمثل في أوضاعهم وعلاقاتهم ومواقفهم ومواقعهم، في الوقت الذي تتطلب فيه المسألة الحضارية مجتمعًا يملك الوسائل التي تحول المفاهيم الحضارية إلى واقع، كما كان ذلك بارزًا في التاريخ الإسلامي عندما كان الإسلام يحكم الواقع ويفرض سلطته وثقافته وحركته السياسية على الواقع العالمي آنذاك.

لقد استطاع الإسلام أن يصنع حضارة علمية سياسية اجتماعية في مدى أقل من مائة عام، وقد لا حظنا أن الإسلام في تلك المرحلة انفتح على الحضارات الأخرى وأعطاها من خصائصه العناصر المميزة.

ونحن نعرف أن الحضارة الغربية، والأوروبية بالذات، التي هي نقطة انطلاق الحضارة الغربية، أخذت كثيرًا من نظريات المعرفة والاجتماع عن التجربة المعرفية والاجتماعية الإسلامية، التي كانت تمثل ريادة التجارب الدولية والحضارية ومصدرًا من

(1) البحار، 139/18/82، رواية 22.

مصادر الغنى الحضاري الشامل.

وهذا مع ما عبر عنه لالا نهرو في كتابه (لمحات من تاريخ العالم)، عندما قال: إن الحضارة الإسلامية هي أم الحضارات الحديثة.

لذلك استطاع المسلمون أن يقوموا بتأسيس الحضارة الإسلامية في المشرق، وأن يسهموا في بناء مداميك الحضارة في الغرب، وتجربة الأندلس تبقى شاهدًا على كل هذه الرؤية الحضارية، وكذلك تجارب غيرها من المناطق في العالم. ولكن من الطبيعي أن كل حضارة، وبسبب عوامل متعددة ومعقدة، تصاب ببعض الأمراض التي تؤدي بها إلى الوهن وتعرضها إلى الاحتضار أو حتى الموت، لا سيما عندما يكف القائمون عليها عن تجديد أسباب الحياة لها، ولكننا في الوقت نفسه، نجد أن هناك لمعات ولمحات حضارية بدأت تبرز في كثير من المجتمعات الإسلامية، وتبشر بأن هناك عملاً دؤوبًا من أجل استكمال تكوين أسباب استيلاد الحضارة الإسلامية من جديد.

إننا عندما نجد أن المسلمين هم الذي أطلقوا حركة العلم، وقادوا حركة التطور، وأسهموا في تعميم الأخلاق الإنسانية، وأوقدوا حركة التفاعل الحضاري مع الحضارات الأخرى، نعرف أن الحضارة الإسلامية ليست حضارة نظرية مفهومية، وإنما هي حضارة واقعية أثبتت فاعليتها وموضوعيتها وواقعيتها من خلال التجربة الإسلامية الحضارية عبر التاريخ.

ومن ناحية أخرى نقول: إن المفاهيم الحضارية الإسلامية تؤكد على الجانب العلمي والعملي معًا، وعلى العلاقات المحكومة بالقيم.. وهذه المفاهيم هي مفاهيم واقعية عملانية وليست مفاهيم مثالية ضبابية غائمة.. ومن الممكن جدًا أن ننزل إلى الواقع من جديد لنعيد إنتاج الروح الحضارية المفقودة، وربما رأينا مظاهرها تتبدى في أماكن كثيرة من واقعنا الراهن، لكن طبيعة الظروف القاهرة التي منعت وتمنع هذه

الحضارة من أن تتحرك في الواقع الإسلامي بفعل ضغوط حالات التخلف التي فرضت على المسلمين، والتي استمرت من القرون السابقة وحتى الآن، إضافة إلى إكراهات الاستكبار والكفر العالمي، اللذين يعملان على منع المسلمين من أن يأخذوا بأسباب القوة، كل ذلك يؤخر التجربة الإسلامية عن أخذ مكانتها المتقدمة في التجربة الحضارية الإنسانية المعاصرة، ولكن مع ذلك نجد أن المسلمين بدأوا بالتخطيط، وفي أكثر من تجربة، لإعادة الإسلام إلى واقع الحياة، للإسهام بشكل فاعل في حل أزمة الحضارة الحديثة المتفاقمة.

إن الإسلام يطرح القيم الروحية والإنسانية الحية على الحضارة الحديثة، ويطرح فكرة التوازن التي ترسي العدالة المفقودة في الحضارة الحديثة، فهو لا يصادر الفرد لحساب المجتمع، ولا المجتمع لحساب الفرد، وإنما يقيم التوازن العادل بينهما، بحيث لا تطغى مصالح أحدهما على الآخر، بل يتكاملان بما يعزز التجربة الإنسانية ويغني التجربة الحضارية.

ويؤكد الإسلام على التوازن بين المادة والروح وهكذا بين الدنيا الآخرة، بحيث يسهم في سد الفجوة المرعبة التي أنشأتها الحضارة الحديثة بين روح الإنسان وجسده، والتي حولت الحضارة إلى هيكل أصم لا روح فيه بعد أن أخذت الإنسان باتجاه البعد الواحد وهو البعد المادي، بينما أطلق الإسلام الإنسان ببعديه المادي والروحي، استنادًا إلى فلسفته ونظرته للإنسان ككائن لا تحدد أبعاده المادة وحدها وإنما ترسم إطار حدوده ورحابتها الروح أيضًا، فهو بهذا المعنى قبضة من طين ونفخة من روح الله.

لنفكر معًا:

نحن نملك الكثير من عناصر القوة، والكثير من عناصر الحركة، والكثير مما يمكن أن يُؤصل لنا إنسانيتنا، ولكن مشكلتنا هي (التنبلة)، فنحن نخاف أن نتغير، ونشعر بالغربة عندما يرفع (الآخرون) الوصاية عنا، لذلك تعالوا نتفاهم:

كيف نؤصل إنسانيتنا؟ وكيف نعمق حريتنا؟

وكيف نكون نحن و(الآخرون)، لا أن يكون (الآخرون) ونحن؟ ونحن دائمًا في الشرق نقول للآخرين: فكروا عنا في اقتصادنا، وسياستنا، وفي أنظمتنا التربوية، والاجتماعية، وفي كل مجالات حياتنا.

لماذا لا نواجه مشكلتنا بصراحة ويكون لدينا الجرأة أن نقول لكل الآخرين: تعالوا لنفكر معًا، لا لتفكروا عنا، فإننا نملك عقولاً وفكرًا ووعيًا نستطيع من خلاله أن نحقق ذواتنا ونصل من خلاله إلى أهدافنا ووحدتنا، فتلك هي المسألة: أن تؤمن بإنسانيتك فهذا أول الفتح، لكن أن تهمل إنسانيتك فهذا أول السقوط.

والحمد لله رب العالمين.